التداولية وأنسنة المكان

في قصيدة الجبل لابن خفاجة الأندلسي

The Pragmatics and the personification of the space

In the poem "The Mountain" by Ibn Khafajah Al-Andalusi

عميور آسيا*،

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة،

amiour.a@centre-univ-mila.dz

بن ساري مسعود،

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة،

m.bensari@centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام: **2021.08.31**

تاريخ القبول: **20.22.02.06**

تاريخ النشر: **2022.03.31**

Ex PROFESSO

المجلد 07، الرقم 01، السنة 2022

ملخص

هذا المقال دراسة تداولية لقصيدة الجبل لابن خفاجة؛ ومضمون بحثي هذا مدخل نظري تطرقت فيه إلى تعريف مصطلح التداولية ونشأتها، وجانب تطبيقي درست فيه القصيدة تداوليا. ويهدف إلى عرض طريقة استعمال اللغة في القصيدة عند الشاعر مثل التكرار، والصور البيانية، والإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية. وأهم النتائج التي خلصنا إليها هي: خصوصية اللغة عند الشاعر، وتجسيد المكان، وقدرة الشاعر على التأثير في المتلقي والإقناع.

الكلمات المفتاحيّة: قصيدة الجبل؛ ابن خفاجة؛ التداولية؛ أنسنة المكان.

Abstract

This article is a pragmatics study of Ibn Khafajah's mountain poem.

The content of my research is a theoretical entry point in which I have touched upon a definition of the term pragmatics and its practical, I studied the poem deliberatively.

It aims to illustrate the way in which a poem uses language, such as repetition, graphic images, signs, presumption, conversational implicature, Locutionary act.

The most important results are Language specificity of the poet, And the personification of the place, and the poet's ability to influence and convince

Keywords: Mountain poem; Ibn Khafajah Al-Andalusi; The Pragmatics; the personification of the space.

Url de la revue :
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/484

* -المؤلف المراسل.

مقدّمة:

حظيت اللغة بنصيب وافر من الاهتمام والدراسة منذ قرون خلت، لكونها أكثر ما يتواصل به المتواصلون للتبليغ عن آرائهم والكشف عن سرائرهم، فظهرت بذلك عدّة نظريات ودراسات حاولت الولوج في أسرارها وخباياها وفهمها، ولعل ما برز بشكل واضح منها واشتهر هو: التيار اللساني الجديد "التداولية."

هذا التوجه الجديد استدعى اهتمامي وكان السبب في اختياري لموضوع هذا المقال الموسوم: "التداولية وأنسنة المكان في قصيدة "الجبل" لابن خفاجة الأندلسي، ودراستها دراسة جديدة من حيث الرؤيا والمنطلق والمنهج، والكشف عن مضامينها ومقاصدها من منظور تداولي من خلال دراسة أهم القضايا التداولية .

هذه الدراسة التي تناولت الجانب النظري، وقد تطرقت فيه إلى تحديد مصطلح التداولية لغة واصطلاحا ونشأة، وإلى الجانب التطبيقي خصصته لدراسة الآليات اللغوية والبلاغية والإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري وأفعال الكلام في قصيدة الجبل لابن خفاجة. ولعله من الصواب أن نقف وقفة بيان للإشكالية والمنهج والفرضيات والأهداف فيما يلي بإيجاز .

الإشكالية المطروحة: هل نستطيع استثمار النظرية التداولية في الكشف عن الآليات التعبيرية المستعملة في القصيدة وما توحي به من معانٍ؟ وإلى أي مدى يمكن أن يساهم المنهج التداولي في فهم المقاصد التي حاول الشاعر إبلاغها للمتلقي من خلال أنسنة المكان؟

منهج التحليل المعتمد: التداولي؛ المنهج الذي دارت حوله نقاشات عديدة خاصة حول حدوده غير الواضحة، إذ تقع التداولية كأكثر الدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث اللسانية والأدبية والفلسفية؛ فهو علم جديد في مجال التواصل الإنساني، وظيفته دراسة الظواهر اللغوية في الاستعمال، والتعرّف على القدرات الإنسانيّة للتّواصل اللّغوي.

الفرضيات المعتمدة: ويجدر بنا الافتراض العلمي أن ابن خفاجة كان مخالفا لمعاصريه وسابقيه في طريقة استعماله للغة كوسيلة للخطاب والتواصل؛ وبالتالي للتأثير والإقناع المختلف كذلك.

أهداف المقال: ويهدف إلى عرض طريقة استعمال اللغة في القصيدة عند الشاعر مثل التكرار، والصور البيانية، والإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، والأفعال

الكلامية؛ مما قد يأتي بنتائج تعيد تشكيل تصورنا وفهمنا لهذا الشاعر الأندلسي الفحل، الذي سمّاه البعض شاعر الطبيعة المرح.

I. تعريف التداولية ونشأتها:

لا يزال النص الشعري قطبا مغناطيسيا تنجذب إليه جهود الدارسين على اختلاف مناهج دراستهم، وقد أعملوا فيه أدوات تشريحهم على مختلف أنواعها، فجاءت نتائج دراساتهم ومقارباتهم مشتبهة وغير متشابهة، مشتبهة في تناولها نفس النص أو المدونة عينها، وغير متشابهة في طريقة المقاربة وفي نتائج الدراسة. فما التداولية؟ وكيف نشأت؟

1.I. تعريف التداولية:

التعريف اللغوي: لقد أجمعت جل المعاجم العربية على أنّ الجذر اللغوي للفظة "التداولية" هو الفعل (دَوَلَ) والمصدر (تدَاول)؛ ففي لسان العرب لابن منظور: "دَالَ، يَدُولُ، دَولاً: انتقل من حال إلى حال، وأَدَالَ الشيء جعله مُتَدَاولاً، وتَدَاوَلنَا الأمر أخذناه بالدّول، وقالوا: دَوَالَيكَ أي مُدَاوَلَةً على الأمر، ودَالت الأيام أي دارت، والله يُداولها بين الناس، وتَدَاوَلَته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة. ودَال الثوب يدُول أي بلِيَ"[1].

التعريف الاصطلاحي: من جملة التعريفات التي قدمت للتداولية هي: "دراسة استعمال اللغة في الخطاب"[2]، ونجد أيضا التداولية هي: "دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت"3. كما نجد تعريفا لها عند "دلاش": "إنّه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعني من جهة أخرى كيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"[4].

وعلى الرغم من أنّ مصطلح التداولية مصطلح فضفاض صَعُب على الباحثين الاتفاق بشأنه إلا "أنّ معظمهم يقر بأنّ قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللّغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"[5]، ويكادون يتفقون على ذلك.

2.I. نشأة التداولية:

تعود بداية مفهوم النظرية التداولية إلى نظرية أفعال الكلام التي ظهرت على يد الفيلسوف المعاصر "جون أوستين" **Austin John** ، الذي "أكّد أن كل ملفوظ يحمل ويخفي بعدا كلاميا، وترتكز نظريته على تقديم مجموعة من الأفعال، (أفعال الأحكام، أفعال القرارات، أفعال التعهد، أفعال السلوك، أفعال الإيضاح)"[6]. وتطورت على يد تلميذه الفيلسوف "جون سيرل" **Searle John** "بتقديم منهج إجرائي مكتمل يوضح عناصر تحليل الخطاب والنص،

ارتكزت على الإشارات، والافتراض السابق واستلزام الحوار، والأفعال الكلامية المتكونة من (الاختبارات، والتوجيهات، والالتزامات، والتعبيريات، والإعلانيات)"[7]

وانطلق "أوستين" Austin من ملاحظة بسيطة، مفادها "أن كثيرا من الجمل التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب: لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره؛ فهي لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة، إنما تغيره أو تسعى إلى تغييرها"[8]. وعليه " قسّم " أوستين " Austin الجمل إلى: جمل وصفية، يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وإلى جمل إنشائية، لا ينطبق عليها ذلك الحكم، وتقابل في الثقافة اللغوية العربية الجمل الخبرية، والجمل الإنشائية، مثلما نجدها عند علماء النحو والبلاغة وكذا علماء التفسير وأصول الفقه في أبحاثهم"[9].

ويتمثل إسهام "سيرل" Searle في " تحديده للشروط التي بمقتضاها يكلل عمل متضمن في القول بالنجاح؛ فيميز بين القواعد التحضيرية ذات الصلة بمقام التواصل، حيث (يتحدث المتخاطبون اللغة نفسها، ويتحدثون "بنزاهة". وقاعدة المحتوى القصوى (يقتضي الوعد من القائل أن يسند إلى نفسه إنجازعمل في المستقبل)، والقواعد الأولية المتعلقة باعتقادات تمثل خلفية (يتمنى مَنْ تلفظ بأمر أن يُنجَز العمل الذي أمر به، وليس بديهيا أن ينجز دون ذا الأمر.

وقاعدة النزاهة ذات الصلة بالحالة الذهنية للقائل)، وينبغي عليه أن يكون عند الإثبات أو الوعد نزيها)، والقاعدة الجوهرية التي تحدد نوع التعهد الذي قدمه أحد المتخاطبين (يقتضي الوعد أو التقرير التزام القائل بخصوص مقاصده أو اعتقاداته)، وقواعد المقصد والمواضعة التي تحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد بفضل المواضعات اللغوية، ومكن هذا التحديد "سيرل" Searle من تقديم تصنيف جديد للأعمال اللغوية"[10].

II. المقاربة التداولية:

يُعين المنهج التداولي الباحثَ في تحليل الخطاب الشعري في الكشف عن الآليات الإقناعية بأبعادها اللغوية والتفاعلية والموقفية لكل من المتكلم والمخاطَب؛ والإقناع عملية كلامية تستهدف التأثيرالعقلي والعاطفي في المتلقي، قصد تفاعله مع الخطاب. أما الاقتناع فهو فعل الأثر الناجم عن عملية الإقناع لدى المخاطَب متى توافرت الظروف لذلك، فيحدث الانسجام بين الرغبة الذاتية والإمكانات المتاحة والهدف المطلوب. وهذه فيما يلي أهم عناصر المقاربة الدلالية نجليها عمليا.

1.II. الآليات اللّغوية (linguistic mechanisms):

تمثل الآلية اللّغوية في بعض الصيغ اللّغوية، انطلاقا مما تفرضه علينا القصيدة، وعلى اعتبار أن التكرار يأخذ قيمته الحجاجية من حيث أن المتكلم يستخدمه حين يرغب تثبيت الحكم في نفس المخاطَب وتقريره في قلبه، فهو "أسلوب يؤتى به لتأكيد القول وتثبيته حين

يستلزم المقام ذلك "[11]، ويقول عنه صاحب الإتقان: "هو أبلغ من التّأكيد وهو من محاسن الفصاحة"[12]

والتكرار في القصيدة ظاهرة تداولية لافتة قد أدت دورا أساسيا فيها، وذلك عندما كان يلح الشاعر بشكل ملحوظ على الألفاظ، مما يوحي بسيطرتها على فكره ووجدانه، وفي دائرة هذا التكرار يطالعنا "اسم الفاعل" الذي ألح عليه "ابن خفاجة" بشكل واضح في قصيدته (كقافية) مثل قوله: "تائب، نادب، راكب، آيب، ذاهب" وكذلك في (قرار البيت) مثل قوله: "مفكر، صامت، قاتل، مدلج، مؤوب، راحلا، ساهرا، ضارع ".

وإلحاح الشاعر هذا يكشف عن رغبته في تأكيد مدى تألمه وحزنه وضيقه وتبرّمه، إذ يشكل تكرار "اسم الفاعل" بما يحمل من مدّ، ما يشبه الزفرة التي تخرج من صدر الشاعر ليفرج عن همومه وآلامه كما ينعكس بالتأكيد ذلك التكرار الملّح على القيمة الحجاجية ورغبة الشاعر في تثبيت الحكم في نفس المخاطَب وتقريره في قلبه، من خلال المدّات المتتالية التي تخلق في القصيدة جوًّا يتلاءم مع الأسى والحزن والضجر.

واللّافت للانتباه أيضا في القصيدة تكرار "صيغة منتهى الجموع" بشكل كبير، ولكل لفظة دلالاتها الخاصة بها، ولكنّها عموما تدل على بلوغ الغاية والكمال والعظمة مثل حديثه عن الجبل في قوله[13]:

يَسُدُّ مَهَبَّ الرّيحِ من كل وجهةٍ ... ويزحم ليلا شهبهُ بالمناكبِ

وقوله أيضا[14]:

ولاَطَمَ من نُكبِ الرياحِ معاطفي ... وزاحَم من خُضْرِ البحارِ غَواربِي

وكذلك عند حديثه عن بلوغ النهاية في مآلات الأمور وتدبرها، وحلول الكثير من المصائب والنكبات[15]:

وَقُور على ظَهْرِ الفلاةِ كأنَّهُ ... طِوالَ الليَالي مُفكِّر في العَواقِبِ

وأيضا[16]:

فَمَا كان إلاَّ أن طَوَتْهم يدُ الرَّدَى ... وطاحَتْ بهم ريحُ النوَى والنوَائِبِ

كما نجد تأكيدا على تألمه وصرخاته، على من كانوا أصدقاءه من الأحياء ذات يوم في تكراره لـ"للنفي" في قوله: "ما كان، فما خفق أيكي، ما غيّض السلوان" وكذلك تكراره لـ"كم الخبرية" في قوله:" كم كنت ملجأ قاتل؟ كم مرّ بي؟ " ليؤكد على كثرة السائرين الذين مروا به ليلا ونهارا، فكان لهم مقيلا يستظلون بظله ويستريحون هم ومطاياهم في رحابه.

وبالإضافة إلى ما سبق نجد الشاعر قد اتكأ أيضا على "التكرار المعنوي" ليزيد القصيدة جمالا، من خلال تكراره للمضمون الفكري مع اختلاف بنية الكلمات ويقال لكلماته مترادفة،

والهدف من ذلك ترسيب الفكرة في نفس المتلقي وتأكيدها في نظره، حيث يقول "مصطفى صادق الرافعي": وتكرار الكلام لكل ما يفيده التكرار توكيدا ومبالغة وإبانة وتحقيقا ونحوهما، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى ومقابلة الأضداد وغيرها، كما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية وتحسين للتكرار المعنوي"[17]. فالشاعر بتكراره هذا يؤكد المعنى للسامع ويصف الجبل ويصوّر شموخه وارتفاعه من خلال صيغ مختلفة فيقول: "وأرعن طمّاح الذؤابة، باذخ، يطاول، يزحم ليلا شهبه، أعنان السماء، غارب..

وعليه فإن "التكرار" ضرب من التوكيد لجأ إليه "ابن خفاجة" لمنح اللفظ دلالة أعمق وأقوى يثبت من خلالها حقيقة ما يتصوره ليوثقه في وجدان المتلقي، بعدما تأثر به هو، وتأمله، وأخلص إلى أنه هالك لا محالة.

2.11. الآليات البلاغيةRhetorical tropes :

ركزّ البلاغيون العرب على استمالة المتلقي بطرق عدة من أجل إقناعه، وعليه يسعى المتكلم جاهدا لضمان إقناع مخاطبه بموضوع الحديث، لأنّ "الإقناع هو قوام المعاني الخطابية"[18]؛ والآليات البلاغية أكثر الآليات التي تبرز الحجاج، كونها تعتمد على التأثير في المتلقي واستمالته عن طريق أساليب جمالية كالتشبيه والاستعارة والكناية ...

وإذا عدنا إلى قصيدة "الجبل" لا نكاد نجد بيتا عاريا من ثوب البيان، ف"ابن خفاجة" بلغ قمة الذروة في استخدام الخيال الواسع، وأجمل ما وفق فيه هو تشخيصه للجبل وتصويره تصويرا محكما ومخاطبته كأنّه كائن حي، ومن الواضح أن أكثر الصّور البيانية انتشارا هي تلك التي اعتمدت على "الاستعارة"، لما لها من القدرة على بث الحياة والحركة في الأشياء وقد عرفها "السكاكي" بقوله: "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه، ما يخص المشبه به"[19].

ففي قوله:" أصخت إليه، حدثني" جعل الشاعر من الجبل إنسانا متكلما متحدثا، فحذف المشبه به وهو الإنسان وذكر صفة من صفاته وهي الكلام على سبيل الاستعارة المكنية، وكل هذا تأكيدا لما يريده من تشخيص هذا الجبل، وبث الحياة فيه والتكلم معه ومناجاته، كما نجدها أيضا عند وصفه لطول الجبل وارتفاعه وضخامته في قوله:" يطاول أعنان السماء بغارب، يسد مهب الريح من كل وجهة، يزحم ليلا شهبه المناكب ..." كل هذه الصّور تجعل المتلقي يبالغ في تخيل ارتفاع الجبل وضخامته وشموخه.

إذن القيمة التداولية للاستعارة تتمثل في إبداع المتكلم الذي يتجاوز المألوف، ليأتي بما يفاجئ المخاطب ويُدهشه من أجل إقناعه، فينطلق في الكشف عن أبعاد الاستعارة من

خلاله، كما أنّ في القصيدة كثيرًا من الألفاظ التي تحمل في ذاتها قيما تداولية، تقرّب الأبعاد الاستعارية التي يرمي إليها المتكلم، فنجد الشاعر ينقل لنا صورة الحزن النفسي الذي يشعر به في نفسه عندما تحل عليه المصائب في قوله: "فما خفق أيكي، نوح ورقي" فقد جعل من الجبل رجلا حزينا باكيا، وما الحركات والأصوات التي على الجبل إلا تعبيرا عن الحزن والتوتر والقلق.

إن الشاعر بهذه التركيبات التي تصنع الصورة يساهم في الانتقال بالمتلقي إلى عالم عقلي إبداعي بتجسيد المعاني وتشخيص المجردات، وعليه فإن القصيدة غنية بالاستعارات الجميلة المؤثرة في كل بيت من أبياتها مما يعكس أهميتها وعمقها في القصيدة.

إلى جانب هذا نجد "ابن خفاجة" قد اعتمد أيضا على الكناية والتي قال عنها صاحب المفتاح: "هي ترك الصريح بذكر الشيء، إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك"[20]. وقد جمع الشاعر في القصيدة بين صورة الاستعارة والكناية في قوله: "يطاول أعنان السماء بغارب، يسد مهب الريح من كل وجهة، يزحم ليلا شهبه بالمناكب" فلو تأملنا لوجدناه قد لجأ إلى الكناية وعدل عن التعبير المباشر؛ أن الجبل طويل فارع الطول، بل كنى عن هذه الحقيقة وانحرف إلى استعمال كيان آخر.

وهنا تكمن القيمة التداولية للمتكلم في الكناية وهي قيمة بارزة تتمثل في أنّه يعتمد أن يخبئ الدّلالة التداولية خلف الدّلالة الحرفية للتركيب الكنائي، حيث يتفادى التصريح إلى التلميح، مراهنا على فطنة المخاطب وذكائه في اكتشاف ذلك. كما نجد أيضا في القصيدة كناية عن سرعة موت الإنسان وهلاكه في قوله: "فما كان إلا أن طوتهم يد الردى". كما نجدها في قوله:" نزفت دموعي في فراق الصواحب" فالشاعر لم ينس أحدا من أصحابه الذين ذهبوا الواحد تلو الآخر، وإنّما بكى عليهم وندب حاله من بعدهم فنضبت وجفت دموعه تحسرا وحزنا عليهم، فعلى السّامع ألا يكتفي بالوقوف عند الدلالة الخفية في التراكيب الكنائية، بل يتجاوزها إلى دلالتها التداولية، وهي شعور المتكلم وعاطفته اتجاه المكنّى به تعبيرا عن آلامه وصدق أحاسيسه.

والكناية أيضا من الوسائل التي تعتمد في التحاجج، فهي بمثابة الدليل الذي يلجأ إليه المتكلم لإثبات معانيه وإقناع قارئه، فسِرُّ جمالها هو الإتيان بالمعنى مصحوبا بالدليل.

وإلى جانب توظيف الشاعر لكل من الاستعارة والكناية في قصيدته، نجده أيضا قد اتكأ على صورة أخرى من صور البيان ولو بشكل يسير وهو التشبيه والذي قال عنه السكاكي: "إنّ التشبيه مستدع طرفين، مشبهًا ومشبهًا به، واشتركا بينهما من وجه، وافترقا من آخر"[21].

ومن جوانب الإبداع في قصيدة "الجبل"، تعانق التشبيه والاستعارة في سياق واحد مما خلق جوا إبداعيا خاصا في النص كما في قوله[22]:

وقورٌ على ظهْر الفلاةِ كأنّما ... يُطاولُ أعنانَ السَّماء بِغاربِ

نرى أن الشاعر في هذا البيت قد شبه هذا الجبل الرّزين الذي يجلس في الصحراء بالرجل الذي امتد به الليل وهو في حال من التّأمل والتفكر، والملاحظ في هذا التشبيه أنه تشبيه محسوس لمحسوس ولعله من أسهل التشبيهات وهذه إحدى القيم التداولية التي تكتنف مفهوم التشبيه من ناحية المتكلم فعليه أن يحرص في حديثه أن يكون معناه واضحا رغبة في تأكيد المعنى عن طريق التصوير والإقناع الحسّي فضلا عن أنّ الصورة التشبيهية ذاتها ينبغي أن تكون مطابقة للواقع مُدرَكة بالحواس، وبالرغم من أن التشبيه ورد مرة واحدة فقط إلا أنه جاء مؤثرا بقوة في نفسية المتلقي، ومن الواضح أن "ابن خفاجة" لم يول التشبيه عناية كبرى في هذه القصيدة ولم يجد فيه تلك القوة التي يريدها أن تأثر في متلقيه وإنما رأى القوة والتأثير في صورة أخرى .

II.3. الإشاريات Deixis:

تتمثل الإشاريات في مجموع الألفاظ والعبارات التي يستعين بها المخاطب في نسج خطابه، وهي عنصر من عناصر التداولية_يُقصد بها كل ما يشير إلى ذات أو موقع أو زمن.. وقد اعتنى بها علماء التداولية لما لها أهمية كبرى في انسجام وتماسك عناصر النّص حيث تنسب إلى حقل التداوليات، لأنها تهتم مباشرة بالعلاقة بين تركيب اللغات والسياق الذي تستخدم فيه"[23]، وللإشاريات بأنواعها دور بالغ في التحليل التداولي ليس من حيث معناها التداولي فحسب، بل لأنها من الوحدات اللغوية التي يقتضي الإلمام بمعناها لتحديد دلالتها. ف "الإشاريات هي تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه[24].

وبهذا يتضح أن للإشاريات أكثر من صنف، ولكل صنف دوره في الخطاب فعملية التلفظ بالخطاب لا يمكن أن تتم دون حضور الأدوات الإشارية الثلاثة وهي: (الأنا، الهُنا والآن) ويمثل كل منها نوعا من الإشاريات وهي: الإشاريات الشخصية، الإشاريات المكانية والإشاريات الزمانية.

II.3.1. الإشاريات_الشخصية_Personal deixis:

"وهي بشكل عام الإشاريات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب"[25]، أي العناصر المشتركة في العملية الخطابية، فعند القيام بمهمة تحليل مختلف طرائق استعمال الضمائر في القصيدة نلمس أن "ابن خفاجة" جرد من نفسه مخاطبا يحادثه، فالشاعر يخاطب نفسه

إلا أنه أقام فاصلا بينه وبينها ويؤدي هذا الفاصل وظيفة تضليلية توحي بأن الشاعر يخاطب آخر في حين أنه في الحقيقة يخاطب ذاته.

كما يحتمل أن يكون الخطاب موجها لكل سامع وقارئ لنصه، فالتجربة التي عاشها يريد أن ينقلها للآخرين فبات همه مسقطا على لسان الجبل فجعل نفسه مشاركا له منسجما معه في حديثه وذلك في قوله: "أصخت" بل سلّم راية الحديث له وسلط الضوء عليه فجعله هو المتحدث عن نفسه (كنت، مرّ بي، بظلي، معاطفي، غواربي..) ثم عاد الشاعر إلى ضمير الخطاب، ولكن هذه المرة ليس من الشاعر إلى الإنسان بل من الجبل العالي الذي ارتفع إلى من هو أعلى منه وهو الله – عز وجل - في قوله[26] :

فرُحماكَ يا مَوْلاي دعوْة ضارعٍ ... يمُدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغِب

فالشاعر بهمومه وتأمله يرى أن القريب لتفريجها القادر على ذلك هو الله، وختم الشاعر القصيدة بالحديث عن نفسه (قلتُ، نكبتُ) وعن الجبل (عنهُ) وفي شطرها الثاني ذكر الكون كاملا بكل ما فيه (فإنَّا) بضمير المتكلمين في قوله[27] :

وقُلتُ وقد نكبتُ عنه لطيةٍ ... سلامٌ فإنا من مقيم وذاهِب

فاستخدامه لضمائر المتكلم المختلفة سمح لابن خفاجة بالتحكم في اتجاه الخطاب منه إلى المتلقي، ومنحه سلطة في خطابه الشعري يوجه بها مشهدا للقصد الذي يريده. ومن الجدير بالتأمل أيضا أن الشاعر جعل الجبل ضمير غائب سواء الظاهر (يلوثُ عليه، أصخت إليه وهو أخرص) أو المستتر (يسد مهب، فحدثني) وذلك تعظيما له ودلالة على علوه وعظمته وهي بذلك إشارة إلى التبجيل والاحترام.

كما نجد ضمير الغائب الجمع المذكر "هم" المتصل في البيت الثامن في قوله: "بهم، طوتهم" ومرجعه "الأصحاب" وله قيمة تداولية اجتماعية ف"ابن خفاجة "من خلال هذا الضمير يتحسر ويظهر مدى حزنه على أصدقائه الذين طوتهم يد الموت المفترسة التي لا يفلت منها أحد وتتركه وحيدا متألماً. وعليه من الجدير بالذكر أنّ القصيدة اشتملت على الضمائر الثلاثة المتداولة: المخاطب، المتكلم والغائب، مع هيمنة ملحوظة لضمير الغائب ولعل لهذه الهيمنة علاقة معينة مع زمن الأحداث.

II.2.3. الإشاريات الزمانية Temporal deixis :

تتمثل الإشاريات الزمانية في استعمال الألفاظ الدالة على الزمن، لكن هذا الاستعمال خاضع لما يقصده الشاعر لأن لحظة التلفظ هي المرجع، فإذا لم يعرف الزمن التبس الأمر على المتلقين، ولهذا "يجب أن نربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى، ونربط كذلك بين الزمن والفاعل لأهميته الكبرى في مرحلة ثانية "[28]

ولقد لفت انتباهي من خلال تحليلي للقصيدة توظيف "ابن خفاجة" للفظة " الليل" وما يدل عليها بكثرة أثناء حديثه مع الجبل الذي كان له أحسن صاحب في سفرته الليلية القاسية والموحشة كقوله:" ليلا، طوال الليالي، ليل السري، شهبه "فتكرار مفردة " الليل "في مواضع مختلفة لها قيمة تداولية بارزة تدل على السّواد المهيمن على نفس الشاعر، فهي نفس حزينة ملتهبة غائمة تبوح بهاجس الفراق الأبدي والموت الذي يخشاه الشاعر ويخفق له قلبه، فقاد ذلك إلى أرق الشاعر وشغل تفكيره بالمصير المنتظر.

II.3.3. الإشارات المكانية Spatial deixis:

هي عناصر الإشارية " تشير إلى أماكن، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان التكلم أو مكان آخر معروف لدى المخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو جهة "[29]

وقصيدة "الجبل" اختارت بقعة مكانية محددة استظلت بها لتبوح بمعانيها ودلالتها، فالأماكن التي ذكرها "ابن خفاجة" في قصيدته معظمها مرتبطة ب"الجبل" مثل قوله:" أرعن، أعنان السماء، مهب الريح، ملجأ قاتل، موطن أوّاه، مرّ بي، من مدلج ومؤوّب، وقال (ربط بين الزمان والمكان) مطي، راكب "فهذه الأماكن المتعلقة بالجبل لها قيمتها التداولية التي تتمثل في الضياع والفقد الذي يعاني منه الشاعر بسبب فقدانه لأحبابه وكل من مرّ عليهم، ويظهر من القصيدة أن الجبل مكان مجهول غير معلوم وبالتالي فالمفترض أن ينظر إليه على أنه مكان مخيف، ولكن الجبل تحوّل إلى صاحب ومؤانس ومحادث أليف للشاعر، ليخفف عن الشاعر كآبة هذا المشهد الحزين، فالجبل على عظمته وتحلمه يشكو الفناء والفرقة، فما أدراك بالشاعر الإنسان. .

II.4. الافتراض المسبق Presumption :

يعد الافتراض المسبق أحد المفاهيم التداولية المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من الخطاب، فهي بمثابة معلومات مدسوسة لم يفصح عنها المتكلم بل أوردها بطريقة آلية في القول الذي يتضمنها أصلا، تقول أوريكيوني: "تصنف في خانة الافتراضات كل المعلومات التي وإن لم تكن مقررة جهرا، . (أي تلك التي لا تشكل مبدئيا موضوع الخطاب الحقيقي الواجب نقله)، إلا أنها تنتج تلقائيا من صياغة القول التي تكون مدونة فيه بشكل جوهري بغض النظر على خصوصية النطاق التعبير الأدائي"[30].

وعليه يمكن القول: إن معنى الملفوظ ليس هو القصد الدال على المتكلم بالذات بل هو المعنى الذي يستخرجه المخاطب من الملفوظ، والقصيدة الشعرية ليست بعيدة عن هذا المبحث

التداولي (الافتراض المسبق)، فكما هو معروف أن النص الشعري متضمن للملفوظات ذات المقاصد المباشرة وغير المباشرة.

وقبل الولوج والتقصي في طيات القصيدة نتحدث أولا عن الافتراض المسبق لعنوان القصيدة (الجبل)، فاختيار ابن خفاجة لهذا العنوان يوضح افتراضا مسبقا هو أن الشاعر متعلق بالطبيعة إلى حد كبير، ومؤثرة في حسه وثقافته وكيف لا؟ وهو ابن الأندلس البيئة التي تميزت بمظاهر الحسن والجمال، من رياض وبساتين وأشجار وأزهار وطيور. فهذه الطبيعة الخلابة ألهمت الشاعر، ودفعته إلى استمتاع بعناصرها ورسم معالمها في قصيدته ولأجل هذا لقب "بالبستاني".

وحقيقة الأمر أن الشاعر اختار ذلك العنوان ليسقط نفسه على الجبل، ليقوم هذا الأخير نيابة عنه بالخلود، فالشاعر لديه غريزة حب الحياة والخوف من الموت، وكان دور الجبل التخفيف عن "ابن خفاجة" فكرة حتمية الموت. كما يوجد افتراض مسبق آخر لعنوان القصيدة يتمثل في أن "ابن خفاجة" يتميز بشخصية قوية صامدة أمام تحولات الزمن، فاتخذ الجبل الذي لاينطبق عليه صفة الموت قناعا موازيا لذاته معبرا عن حياته يلج إليه ولو لوقت قصير للهروب من حالته النفسية الشجية. وقد ورد في قصيدة "الجبل" لابن خفاجة" أبيات تخدم هذا المنحى التداولي - الافتراض المسبق- منها قوله[31]:

وأَرْعَنَ طَمّـاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذِخٍ ... يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَـارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... ويَزْحَمُ لَيْـلاً شُهبهُ بالمَنَاكِـبِ
وقورٌ على ظَهر الفَـلاة كأنَّه ... طَوَالَ اللَّيَـالِي مُفْكِرٌ بالعَوَاقِبِ

في هذا المقطع الشعري يصف "ابن خفاجة" الجبل بعد أن تخيله رجلا معمرا قد شهد عهودا منذ القدم، فتتجاوز صورة الجبل سماتها الطبيعية الحقيقية، وتكتسب بالمجاز الشعري سمات بشرية تشخيصية في قوله: (أرعن، باذخ، يطاول، بغارب، المناكب) الأمر الذي يقودنا إلى افتراض مسبق يتعلق بالشاعر وهو اهتمامه الكبير بالجبل من خلال إسناد مجموعة من المواصفات له وهي: المطاولة والرعونة والشموخ والعظمة والمزاحمة والوقار.

كما يقودنا آخر المقطع إلى افتراض مسبق، وهو قلق وحزن الشاعر الواضح من خلال أرقه وتفكيره في نهاية العمر، فالجبل بات مطرقا طوال الليل يفكر في العواقب، والحقيقة أن الشاعر هو المطرق المتفكر في المصير المنتظر. فـ"ابن خفاجة" وقف أمام "الجبل" مبعثر المشاعر حائرا عن وصفها فجعل منه وسيلة يبثها حزنه وقلقه وحسرته، فكان بمثابة مهرب الشاعر وبؤرة يسقط فيها همومه، غارقا في تأمل الجبل بما يشغل تفكيره وذاته الحائرة.

ونجد الشاعر قد بالغ في السوداوية فأنطق الجبل بتأملاته وأضفى عليه صفات بشرية في قوله[32]:

أصختُ إليه وهو أخرسٌ صامتٌ ... فحدَّثني لَيلُ السُّرى بالعَجائبِ

إن الافتراض المسبق لهذا البيت هو احتياج الشاعر لمسل في وحدته فانطق الجبل وبعث فيه قيمة إنسانية بالرغم من خرسه وصمته. فأخذ هذا الصامت في سرد ما مر به من حوادث في قوله[33]:

وقال ألا كَم كنتُ ملجأ قاتلٍ ... ومَوطن أوَّاهٍ تبتَّـلَ تائبِ
وكم مرَّ بِي من مُدلجٍ ومُؤوِّبِ ... وقَالَ بظلِّي مِن مطيٍّ وراكبِ
ولاطَم من نُكب الرّيَاح معَاطفي ... وزاحَم من خُضْر البِحار غواربي
فما كان إلا أنْ طَوتهم يَدُ الرَّدى ... وطَارت بهم ريح النَّوَى والنَّوَائِب
فما خَفْق أيكٍ غير رجفَة أضْلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرقٍ غيرَ صَرخة نادب
وما غيّض السّلوان دمْعي ولكِن ... نزفتُ دمُوعي في فُراق الصَواحب

انطلق الجبل يصور شريط حياته المتواصل، من معاصرة واجتماع لديه كل من الفاتك، والناسك، والمدلج، والموؤب. فكان الجبل بمثابة الحضن الدافئ لهم، فبعد أن ينتهي الشاعر من سرد حوادثه، يتساءل كيف أن كل هؤلاء ذهبوا واختطفتهم يد الموت أو المصائب في قوله [34] :

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب ... أودع من راحلا غير آيب؟

إن المتحدث المفترض هو الجبل الجامد الذي فاض بالمشاعر، ولكن في الحقيقة هو الشاعر الذي أقلقه هاجس الموت وهذا المصير الذي ينتظر كل المخلوقات، إن هذه الصورة الحزينة التي رسمها "ابن خفاجة" في هذا المقطع توحي بافتراض مسبق متعلق بالشاعر، متمثلا في قلقه واستثقاله للحياة ووحدته بعد ذهاب إخوانه والمسائلة في الاعتبار، فكان الشاعر يبكي نفسه من خلال الجبل. وحسب "سرفولي" فإن " الشيء الذي يتدخل في التأويل والإضمار ليس السؤال ماذا يقول المتحدث لكن السؤال لماذا يقول ما يقوله في سياق معين"[35].

وعلى هذا الأساس نتساءل لما "ابن خفاجة" يتساءل عن موت أحبائه، هل كان ذلك لإبداء رغبته في الموت تخلصا من كثرة الحياة التي عاشها؟ أم أنه لا يقصد ذلك، بل كان مستغربا قلقا من النهاية المجهولة التي سيؤول إليه؟ فبعد أن يفرغ الشاعر شحنة الحزن على لسان الجبل، يخرج إلى حقيقة يعانيها يلخص بها واقع الحياة في قوله[36]:

وقُلتُ وقد نكبتُ عنه لطيةٍ ... سلامٌ فإنا من مقيم وذاهِب

ويضم هذا المقطع افتراضا مسبقا للشاعر وهو إيمانه بحتمية الموت وشموليته، فكان ذلك لب قلق الشاعر المسيطر عليه.

5.11. الاستلزام الحواري Conversational Implicatur :

أحد أبرز المفاهيم في الدرس التداولي الغربي الحديث وهو" لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"[37] فالمعاني ليست دائما صريحة بل هناك حالات سياقية تستدعي الإضمار وعدم التصريح، ويرمي الاستلزام التخاطبي إلى الوقوف عليها في وتفسيرها وتأويلها وفقا للسياقات المحيطة بها.

والشاعر في القصيدة قد اختار الكلمات المعبرة عن أفكاره، واستعان بالأسلوبين الخبري والإنشائي اللذين خرجا إلى معان مستلزمة وأغراض تداولية كثيرة، تكونت من خلال خرق قواعد الحوار في قصيدته، وهي تفهم من السياق.

وقد اختار الشاعر الأسلوب الخبري وأكثر منه، لأنه ينقل لنا تجربته الذاتيّةً، ومشاعر حقيقيّةً صادقة دالة على حالته النفسية في تلك الحقبة من حياته ومن عمر الأندلس وأحوالها، ومن المعاني التي خرج إليها الأسلوب الخبري في قصيدته قوله[38]:

وأَرْعَنَ طَمـاحِ الذُؤَابَةِ بَاذِخ ... يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغـارِب

يَسُدُّ مَهَبَّ الريـحِ مِنْ كُلِّ وِجْهَة ... ويَزْحَمُ لَيْـلاً شُهبهُ بالمَنَاكِب

وقورٌ على ظَهر الفَلاة كأنَّه ... طَوَالَ اللَّيالِي مُفْكِرٌ بالعَوَاقب

إن الشاعر أضفى على الجبل صفات الإنسان فهو جبل عالي القمة، يطاول السماء بكاهله، ويسد الريح لعلوه، كما يصفه بشيخ حكيم وقور جالس يفكر في عواقب الأمور ونهايتها. إن هذا الطموح والارتفاع والاعتراض والوقار الصامت لا يعبر عن طول الصمود ولذة الخلود بل يقدم به الشاعر صورة عن حالة الكآبة التي يعيشها بعد أن بقي وحده وغادره أقرباؤه فكأنه والجبل يحكيان الغربة والوحدانية القاسية، بل يصف –في حقيقة الأمر- ذاته ومعاناته وشدة إحساسه بالزمن. وكيف لا؟ وهو قد عمَّرَ كثيرا وعاش طويلا

لقد تضمن ملفوظ الأبيات إلى جانب فعل الإخبار بأن الجبل مرتفع، شامخ صامد لا يتحرك، يفكر ويتأمّل في مصائر النّاس معنى مستلزما يتمثّل في ملل الشاعر من الحياة وسئم حاله.

وتتوقف القصيدة عن تقديم الصورة الخارجية للجبل، ليقترب منه الشاعر تدريجيا ويستنطقه ويصغي إليه ويحاوره عن ماضيه فيسرد ما مر به من مشاهد في قوله[39]:

وقال ألا كَم كنـتُ ملجـأ قاتلٍ ... ومَوطـن أوَّاهٍ تبتَّـلَ تائـبِ
وكم مرَّ بِي من مُدلجٍ ومُؤوِّبِ ... وقَالَ بظلِّي مِن مطيٍّ وراكـبِ
ولاطَم من نُكب الرّيَاح معَاطفي ... وزاحَم من خُضْر البِحار غواربي
فما كان إلا أنْ طَوتهم يَدُ الرَّدى ... وطَارت بهم ريح النَّوَى والنَّوَائِبِ
فما خَفْق أيكٍ غير رجفَة أضْلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرقي غيرَ صَرخة نـادب
وما غيّض السّلوان دمْعي ولكِن ... نزفتُ دمُوعي في فُراق الصَواحب

هكذا يحكي الجبل للشاعر ضيق الحياة وأحداثها وما عايشة، فكم مرة كان ملجأ لقاتل هرب خوفا من العقاب، أو مكانا للعابد أو التائب، وكم مر به من سار وراجع، وكم استظل بظله ونام في الهاجرة، وكم واجه من رياح وأمواج البحر، كلهم زالوا وأخذتهم الموت والهلاك أخذتهم ريح البعد والمصائب والبلاء، وما اهتزاز أشجاره ونوح حمائمه إلا دليل على حزنه، ولم يذهب الصبر دموعه ولكنه أفناها في بكائه على أصحابه .

لقد تضمن ملفوظ الأبيات أفعالا إخبارية مباشرة تتمثل في الإخبار عن لجوء أشخاص بين عابدين ومتبتلين أو فارين من العقوبة؛ والكل طواه الموت وهو على ما هو، فكان المعنى المستلزم من الإخبار هو الإحساس بالحزن الشديد نتيجة وفاة أصحابه وبقائه وحيدا. وفي آخر الأبيات تأتي لحظة الوداع وأنات الفراق في قوله[40]:

وقلْت وقد نكبتُ عنه لطيَة ... سلامٌ فإنا من مقيمٍ وذاهبِ

يستمع الشاعر إلى موعظة الجبل فيرى فيها عبرة للمعتبرين وصدى لتجارب السنين، فلا يملك إلا أن يشارك الجبل أحزانه ويأنس به في وحدته وعزلته، ثم لا يملك إلا أن يودع صاحبه ويلقي عليه التحية تحية الراحل (الشاعر) للمقيم (الجبل)، كما فارقه غيره من المارين به لمهمات لابد من قضائها. الأمر الذي ولد في ذاته إحساسا آخر بالقلق والخوف من الحاضر والمستقبل المجهول، وأكّد له حتمية الفناء والزوال.

فإنّه إلى جانب القوة الإخبارية الحرفية الواردة في هذا البيت، في توديع الصاحب لصاحبه، فقد تضمن قوة مستلزمة مقاميا هي: تبيين مدى الحزن والأسى على فقدان الأحبة فما الناس إلا مولود قادم أو ميت مفارق. وقد خرجت الأساليب الإنشائية الطلبية في القصيدة هي الأخرى عن معانيها الأصلية إلى معان فرعية مستلزمة مثل قوله[41]:

فحتىَ متَى أبقَى ويظعنُ صاحِب ... أودع منه راحلاً غير آيبِ؟

يطرح البيت تساءل الجبل إلى متى سيرحل أحبائي بلا عودة، أودع منهم صديقا راحلا إلى ديار الفناء وغير عائد إلى الحياة الدنيا وأنا ثابت في مكاني؟، إنّ هذا التساؤل يدل على الحالة

النفسية للشاعر، وشدة انفعاله من مصيره ومصير المخلوقات الذاهبة إلى الفناء، ورؤيته السوداوية للحياة في آخر أيامه.

وعليه تكون القوة الإنجازية الصريحة الناتجة عن الصيغة الحرفية للتركيب في البيت هي الاستفهام، أما القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا هي التعجب وإظهار الحسرة والألم والغربة النفسية والزمانية؛ حينما طال به العمر ووجد نفسه وحيدا دون أصدقاء أو أقرباء. كما نجد الأسلوب الإنشائي قد خرج إلى معنى الدعاء في نهاية المطلع في قوله[42]:

فرُحمَاك يا مولايَ دعوة ضَارعٍ ... يمدُ إلى نعمَاك دعوة راغِبِ

يتوسل الجبل إلى الله أن يرحمه، ويقدم فلسفته في الحياة والموت، فمهما طال عمره وإقامتُه، فهو ذاهب يوما ما. في تذلل إليه كي يجعل مصيره كمصير الذين لاذوا به وذهبوا إلى الموت، فقد تضمن البيت معنى الدعاء بالمصدر المنصوب (رحماك) والتّقدير: (أسألك رحماك). فرحماك مفعول به ثان لفعل محذوف تقديره أسألك. فبالإضافة إلى القوة الإنجازية الصريحة المتمثلة في الدعاء والتضرع، تضمن ملفوظ البيت قوة إنجازية مستلزمة متمثلة في الضعف الإنساني ومواجهة الشاعر لقدره وجها لوجه وتكسير صوت الرفض للموت والتمرد عليه.

6.II. أفعال الكلام Speech acts :

تُعد الأفعال الكلامية واحدة من أهم المباحث في الدرس التداولي إن لم يكن أهمها جميعا، بل إن التداولية في نشأتها الأولى مرافقة للأفعال الكلامية، فهي الحضن الأول الذي نشأت فيه هذه الأخيرة، وقد "مرت نظرية أفعال الكلام بعدّة مراحل لعلّ أهمَّها مرحلة التأسيس ويمثلها "ج.ل.أوستن" ومرحلة النضج والضبط المنهجي ويمثلها "ج.ر.سيرل" ومن خلال فحص قصيدة "وصف الجبل" ل"ابن خفاجة" أمكن تمييز الأفعال الكلامية وفق الأصناف التي وضعها "ج، ر سيرل" وهي: الإخباريات، التوجيهات ، الإلتزاميات، التعبيرات والإنجازيات.

1.6.II. الإخباريات Informatives :

هي الأفعال التي تبلغ خبرا، وهي تمثيل للواقع "والغرض الإنجازي فيها وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضيةproposition ، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق أو الكذب واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالمwords-to-world، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها." وأفعال الكلام الإخبارية موجودة بكثرة في قصيدة "وصف الجبل"، لأن "ابن خفاجة" في موقف إخبار ووصف، فقد مرّ بكثير من التجارب والوقائع في حياته وقد ضمنها أبياته ليعبر عنها ويوضح كيف كان تصرفه، فمثلا في قوله:

وقال ألا كَم كنتُ ملجأ قاتلٍ ... ومَوطن أوَّاهٍ تبتَّلَ تائِبِ

وكم مرَّ بِي من مُدلجٍ ومُؤوِّبِ ... وقَالَ بظلِّي مِن مطيٍّ وراكـبِ
ولاطَم من نُكب الرّيَاح معَاطفي ... وزاحَم من خُضْر البِحار غواربي

إن الأبيات مليئة بالشجن يدور مضمونها حول إنسان معمر سئم الحياة ومل البقاء والخلود الذي لا غاية وراءه؛ ويرى أن حوادث الدهر عبثت به فكان مأوى للقتلة الفارين وملجأ للعابدين، كما كان مقيلا يستظل فيه الكثير من السائرين ويستريحون هم ومطاياهم، فالواقعة حصلت في الماضي وهذا ما يدل عليه طغيان الأفعال الماضية في الأبيات (قال،كنت، مرّ، قال (قيلولة)، لاطم، زاحم ...).

فالزمن الماضي يفيد تقرير الحقيقة و"ابن خفاجة" في هذه الأبيات يطالعنا على تجربة نفسية سيئة عاناها فانطلقت في أبيات معبرة وهي خوفه من المصير المحتوم وهو الفناء المقرر على بني البشر فالشاعر نواة القضية في القصيدة والأفعال الكلامية تدور حوله ولقد توفرت شروط الأفعال الإخبارية في هذه الأبيات إذ المتكلم هو "ابن خفاجة" الذي يصف تجربة عاشها، كما توفر شرط الإخلاص بالنقل على لسان الجبل فالشاعر يقصد وله نية الإبلاغ والتعبير الصادق عن الحادث.

2.6.11. التوجيهات :Derectives

غرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلماتworld-to-words ، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة، ويدخل في هذا الأمر، والطلب، والنصح.." والأفعال التوجيهية هي التي تربط المتكلم بمخاطبيه وقد تضمنتها قصيدة "وصف الجبل" فقد حرص" ابن خفاجة" على استخدام أسلوب إنشائي طلبي وهو "الاستفهام " في قوله :

فحتىَ متَى أبقَى ويظعنُ صاحِب ... أودع منه راحلاً غير آيبٍ؟

في هذا البيت فعل كلامي طلبي خرج من معناه الحقيقي المباشر وهو الاستفهام" فحتى متى أبقى...؟" إلى معنى غير مباشر وهو الإنكار وهو فعل إنجازي يفيد عدم القدرة على البقاء بسبب غياب الأصحاب يؤدي إلى فعل تأثيري هو حدة الشعور بالملل والضجر، فالشاعر حائر حزين متحسر على مصير أصدقائه مضطرب فإلى متى يمتد به الأجل ويرحل أصحابه إلى غير رجعة؟ واستعماله ل" كم الخبرية" مرتين في القصيدة في قوله:" كم كنت ملجأ قاتل؟ كم مرّ بي من مدلج ومؤوّب؟ تفيد الإخبار عن كثرة العدد من الناس الذين مرّوا من حوله، وكثر الهالكين الفانين، إن الاستفهام ههنا يعبر عن الحيرة، فقد ترجم مكنونات نفسية الشاعر الوحيدة المتألمة.

3.6.II. الالتزامات Assertives:

وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، واتجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيه هو القصد intention ويدخل في الوعد بالوصية ."

نلاحظ في القصيدة الفعل الالتزامي في قوله :

أَصخْت إليه وهُو أخرسٌ صامتٌ ... فحدثنَي ليلُ السُّرى بالعجَائِب

في هذا البيت أنجز الشاعر فعلا كلاميا التزاميا حين تلفظه في البيت (أصخت إليه) فقد صرّح أنّه تمسّك بفعل إنجازي وهو التزام الإصغاء والاستماع إلى ما سيلقيه الجبل عليه، فالفعل " أصخت" يدل على زمن الماضي والقوّة الإنجازية للفعل الالتزامي، وغرضها الاستمرار في تحقيق الالتزام بالإصغاء وهو الفعل التأثيري المقصود، فالعالم يطابق الكلمات، فينطلق الجبل وهو الأخرس الصامت ليحدثه في ليل السّرى بأحاديث عجيبة وحكم مدهشة .

4.6.II. التعبيرات Expressives:

وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر في شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقةً للعالم، ولا العالم مطابقا للكلمات. إنّ المتمعن في القصيدة يرى أنها تعبير عن واقع الشاعر وحالته النفسية الحزينة المضطربة التي مرّ بها والأحداث التي شهدها ويظهر هذا في الأفعال التعبيرية: "خفق أيكي، رجفة أضلع، نزفت دموعي، طوتهم يد الردى طارت بهم ريح النوى والنوائب، يظعن صاحب، أوّدع منهم راحلا غير آيب..." ففي هذه التعابير مضمونات عاطفية تفيض بالقلق والضجر والاضطراب الداخلي العنيف الذي يهيمن على الشاعر فالفعل التعبيري هنا غرضه الإنجازي هو الأسى والحسرة والحزن والكآبة .

5.6.II. الإعلانيات Declaratives :

وتسمى أيضا الإعلانيات أو الإيقاعيات، وتكون حين التلفظ ذاته، "واتّجاه المطابقة في الغرض الإعلاني قد يكون من الكلمات إلى العالم أو من العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص" إذ يكفي إنجازها بنجاح لتحقيق المطابقة. وقد تتحدّد الدّلالة بمجرد نطق المتكلم بها حيث يكون إيقاع الفعل الكلامي موحيا بالدّلالة المقصودة، وهي هنا الدّعاء في قوله :

فرُحمَاك يا مولايَ دعوة ضَارعٍ ... يمُدّ إلى نعماك راحَة راغبٍ

فالغرض الإنجازي للفعل الكلامي في هذا البيت هو الدّعاء، ويعود على المتكلم "ابن خفاجة"، الذي توفرت فيه نيّة الدعاء، فتحقق شرط الإخلاص والقصد، إذ أنّ الفعل الإيقاعي أُنجز عند تلفظ المتكلم به ووقع فعل الدعاء، والعبارة التّي تدل عليه:" رحماك يا مولاي" ففي هذه العبارة يعلن الشاعر اتّجاهه لله تعالى قصد التوسل إليه وطلب الرجاء منه، والغرض التأثيري للفعل الإنجازي الإيقاعي هو توثيق الصّلة بين العبد وربه، وزيادة قوّة إيمانه.

وفي الأخير نلاحظ أنّ قصيدة "الجبل" لـ"ابن خفاجة" قد حفلت بجميع أصناف الأفعال الكلامية: الإخباريات، التوجيهات، الالتزاميات، التعبيرات، والإنجازيات، وكان الصِّنفان الأوّلان هما الغالبان على بقية أصناف الأفعال الكلامية، لأنّ "ابن خفاجة" في قصيدته هذه كان في موقف نقل أخباره ووقائعه التي عايشها، فالشاعر قد عمر طويلا حتى بلغ سن الحكمة، وتعرض خلال هذا العمر الطويل إلى مسرات الدّهر ونكباته، فنظر إلى أصحابه وهم يذهبون الواحد تلو الآخر ولا يعودون، فظل وحيدا يرقب رحلته الأخيرة.

خاتمة

قد كانت هذه المقاربة رحلة تأملية في مضمون نص شعري تأملي، فهي في الحقيقة تأمل على تأمل، إنها قصيدة استطاعت الخلود لأنها عبرّت عن كبرى القضايا التي شغلت الإنسان ولا زال منذ أن خلقه الله سبحانه، قضية الفناء والزوال. ولكن الطريف حقا أن الشكوى من الزوال هي التي خلدت الشاعر إلى يومنا، بصدق التعبير، وسحر المداولة بينه وبين الجبل، لتسفر عن النتائج الآتية :

اعتمد "ابن خفاجة" آليات لغوية عدة في قصيدته ظهرت على مستوى الأبيات مثل: تكرار اسم الفاعل وصيغة منتهى الجموع والذي جاء متوافقا مع ما أراده الشاعر من قصيدته. ونويع الشاعر في استخدامه للآليات البلاغية فنالت تراكيب الاستعارة حصة الأسد في القصيدة لما رأى أنها الأسلوب الأنسب للتعبيرعن مشاعره وأحاسيسه.

ورود الإشاريات في القصيدة بأنواعها المختلفة الشخصية، الزمانية والمكانية . ونهضت أبيات القصيدة على افتراضات مسبقة تخرج في عمومها إلى تبيين عمق الشجن والأسى الذي يعانيه. وتضمنت القصيدة دلالات مستلزمة غير مباشرة، تستنبط من خلال السياق التداولي لها، وفي كل جزء من كلام الشاعر أغلبها يخرج إلى إظهار الألم والحسرة والحزن.

ورود أفعال الكلام في قصيدة "الجبل" متنوعة بين الإخبارية، التوجيهية، الإلزامية والتعبيرية والإنجازية. ويبقى ابن خفاجة مدرسة تخرج منها كبار الشعراء، وسيظل هذا الشاعر دائما الطائر الصيت الذي غنى للإنسانية بصدق، فكان لسان حالها، فخلدته شاعرا إنسانيا عالميا. لقد تداول الشاعر قضية وجودية، اهتزّ من هولها الجبل، هذا الشامخ العظيم، آية الله في أرضه، فشكا وبكى، فاعتبر الشاعر واتعظ، بعدما جسّد وأنسن، ليخلص إلى قول الحكيم: (كل الأنام إلى زوال). وهكذا يتميز ابن خفاجة في:" كيف تداول"؟ و"مع من تداول"؟ و"ماذا تداول"؟[43].

الهوامش:

[1] - ابن منظور محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1992م، ج11، ص253.

[2] - فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، منشورات مركز الإنماء القومي، سوريا، دط، د ت ط، ص7 .

[3] - فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2007م، ص19.

[4] -الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة محمد بحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، د ت، ص1.

[5] - مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص16،17.

[6] - عبد الحكيم سحالة: التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقى الدولي الخامس (السيمياء والنص الأدبي)، 15 -17 نوفمبر 2008م، جامعة بسكرة، الجزائر، ص422.

[7] -المرجع نفسه، ص422.

[8] -آن روبول جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص30.

[9] -باديس لهويمل: التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، العدد السابع، 2011م، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 160.

[10] -آن روبول جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص34.

[11] -عباس فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دت، دار الفرقان، الأردن، ط4، 1997م، ص488.

[12] -جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط، 1988م، ج3، ص199.

[13] - ابن خفاجة إبراهيم بن أبي الفتح، الديوان، تحقيق عمر فاروق الطّباع، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، د ت ط، ص48.

[14] -المصدر نفسه، ص 48.

[15] - المصدر نفسه، ص48.

[16] - المصدر نفسه، ص48.

[17] -مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1973م، ص196.

[18] -محمد بن لحسن بن التيجاني، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، د ط، 2011م، ص361.

[19] - السكاكي يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص369.

[20] - المرجع نفسه، ص 402.

[21] - ابن التيجاني، التلقي لدى حازم القرطاجني، ص332.

[22] -ابن خفاجة، الديوان، ص48.

[23] -عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004م ، ص82.

[24] -المرجع نفسه، ص81.

[25] -المرجع نفسه، ص82.

[26] - ابن خفاجة، الديوان، ص49.

[27] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[28] -محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص53.

[29] - المرجع نفسه، ص21.

[30] -كاترين كيربرات أريكيوني، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 ديسمبر2008م، ص 44،45.

[31] - ابن خفاجة، الديوان، ص48.

[32]-المصدر نفسه، ص48.

[33] -المصدر نفسه، ص48.

[34] -المصدر نفسه، ص48.

[35]-ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، تيزي وزو، ط2، 2012م، ص194.

[36] - ابن خفاجة، الديوان، ص49.

[37] -صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2005، ص7.

[38] - ابن خفاجة، الديوان، ص48

[39] -المصدر نفسه، ص48.

[40]-المصدر نفسه، ص49.

[41] - المصدر نفسه، ص49.

[42]- المصدر نفسه، ص49.

[43] المصدر نفسه، ص48، 49.

المراجع:

- أريكيوني، كاترين كيربرات، (2008م)، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
- ابن التيجاني، محمد بن لحسن، (2011م)، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، د ط، دار عالم الكتب الحديث، الأردن.
- جاك موشلار، آن روبول، (2003م)، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس وآخر، ط1، المنظمة العربية دار الطليعة، لبنان.
- ابن خفاجة إبراهيم بن أبي الفتح، الديوان، تحقيق عمر فاروق الطّباع، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، دت ط - دلاش، الجيلالي، (د ت)، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة محمد بحياتن، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- ذهبية، حمو الحاج، (2012م)، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ط2، دار الأمل، الجزائر.
- الرافعي، مصطفى صادق، (1973م)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، دار الكتاب العربي، لبنان.
- سحالة، عبد الحكيم، (15 -17 نوفمبر 2008م)، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقى الدولي الخامس (السيمياء والنص الأدبي)، جامعة بسكرة، الجزائر.
- السكاكي، محمد بن علي، (1987م)، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان.
- السيوطي، جلال الدين، (1988م)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، د ط، المكتبة العصرية، لبنان، ج3.
- صحراوي، مسعود، (2005م)، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، دار الطليعة، لبنان.
- صلاح، إسماعيل، (2005م)، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، د ط، الدار المصرية، والسعودية للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، العربية السعودية.
- ظافر الشهري، عبد الهادي، (2004م)، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا.
- عباس فضل، حسن، (1997م)، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ط4، دار الفرقان، الأردن.
- فرانسواز، أرمينيكو، (1987م)، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، د ط، مركز الإنماء القومي، المغرب.

- فيليب، بلانشيه، (2007م)، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا.
- لهويمل، باديس، (2011م)، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، د م، العدد7.
- محمود أحمد نحلة، (2006م)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط1، دار المعرفة الجامعية، مصر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (1992م)، لسان العرب، ط2، دار صادر، لبنان، ج11.

الملاحق:

ملحق1: "قصيدة الجبل لابن خفاجة الأندلسي"[43]:

وَأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذِخٍ يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الرِيحِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهبهُ بالمَنَاكِبِ
وقورٌ على ظَهر الفَلاة كأنَّه طَوَالَ اللَّيَالِي مُفْكِرٌ بالعَوَاقِبِ
يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ لَهَا من وميض البَرق حُمرٌ ذوائبِ
أصختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدَّثني لَيلَ السُّرى بالعَجائبِ
وقال ألا كَم كنتُ ملجأ قاتلٍ ومَوطن أوَّاهٍ تبتَّلَ تائبِ
وكم مرَّ بِي من مُدلجٍ ومُؤوِّبٍ وقَالَ بظلِّي مِن مطيٍّ وراكبِ
ولاطَم من نُكب الرِّيَاح معَاطفي وزاحَم من خُضْر البِحار غواربي
فما كان إلا أنْ طَوتهم يَدُ الرَّدى وطَارت بهم ريح النَّوَى والنَّوَائِبِ
فما خَفْق أيكي غير رجفَة أضْلُعٍ ولا نَوْحُ وُرقي غيرَ صَرخة نادب
وما غيَّض السّلوان دمْعي ولكِن نزفتُ دمُوعي في فُراق الصَواحب
فحتى متَى أبقَى ويظعنُ صاحبٌ أودِّعُ منه راحلًا غيرَ آيبٍ؟
فرحْماكَ يا مَولاي دعْوة ضَارعٍ يمّدُ إلى نُعماك راحَة راغبٍ
وقلت وقد نكبت عنْه لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيم وذاهبٍ

لنقتبس من المؤلف:

عميور، آسيا-بن ساري ، مسعود، «التداولية و أنسنة المكان في قصيدة الجبل لابن خفاجة الأندلسي» المجلد 07، الرقم01، ص ص 456-476، https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/4801